الفكر السياسي

بين الحقيقة والمصلحة

بقلم عبد اللطيف شرارة

يقف عرب اليوم ، في مختلف ديارهم من العراق الى المغرب الاقصى ، ومن أعالي الموصل الى شطآن عدن ، على عتبة عصر جديد مغاير في كثير من الوجوه والاتجاهات ، لما سبق لهم أن مروا به من عصور ، وهم الذين ولجوا التاريخ قبل غيرهم من شعوب الارض وأممها ، وكانت بلادهم مهاد الحضارة الانسانية ، ومنطلق انتشارها وامتدادها .

وذلك وحده يكفي للدلالة على خطورة هذه « اللحظة الحضارية » من عمر النضال العربي ، وتقدم هذا النضال ، وزحفه المنتصر نحو أهدافه العالية ، الذاهبة صعدا حتى تبلغ سماوات الحق والخير والجمال ، والموغلة عمقا حتى تنفذ الى اسرار الواقع الخفي ، ومخبآت المستقبل الغامض .

وخلاصة ما يمكن أن تنجلي عنه هذه الفترة التاريخية الحاسمة، انما هو ايجاد مجتمع دولي جديد ، غير هذا المجتمع الدولي الراهن الذي اثبت عجزه عن مجابهة المفاسد الدولية ، عن مقاومة الانتهازية العالمية ، عن انسياقه أخيرا في الموبقات التي احتضنها الفاسدون والانتهازيون والمنحلون من كل جنس ولون وملة وبلد .

والامر انما سيكون على ما نصف ، لاسباب تتصل بواقع الطبيعة في جانب ، وواقع الفكر البشري في جانب ، وواقع التاريخ ، تاريخ المجتمعات الدولية في اخر جانب . وما هو ضرب من الرجم بالغيب ، كما قد يتصور أولئك الذين يخيفهم التغير ، ويرفضون مواجهة الواقع بنسبة ما يرفضون النظر في المصير . ولا هو أيضا وهم يبعث عليه حب جماعة أو أمة ، ويمليه بغض فئة أو شعب ، فليس للحب والبغض في كل ما نبين هنا مكان ، وان كنا لا نبرأ من حب الحقيقة ، وبالتالي من كراهية الدجل والزور .

وقضية المجتمع الدولي تدور برمتها حول الحقيقة والمصلحة، وما بين هاتين من روابط . ولن يكون للفكر السياسي من مهمة بعد ذلك، سوى تركيز للحقائق ومفاهيمها ، ثم ربطها بالمصالح ومفاهيمها ، فمن سعى في طلب الحقيقة وكشفها ، كان كمن يسعى في تركيز المصلحة العامة وبيانها ، لان المصلحة العامة لا يمكن أن تختلف والحقيقة في شيء ، فاذا اختلفنا كان معنى اختلافهما واحدا من ثلاثة : اما أن المصلحة شخصية لا عامة ، واما أن الحقيقة المبينة ليست حقيقة ، واما أن الرابطة بينهما غير طبيعية .

— ١ —

لا بد لكل باحث في الاجتماع البشري من درس الاخلاق التي يقوم عليها كل مجتمع ، وبيان مصادرها وأسسها في تاريخه وأطواره وأوضاعه المعاشية والثقافية .

هذه الاخلاق هي التي يرفض البيولوجيون ومن يحسبون انفسهم ذوي « نظرة علمية » اعتبارها علما ، لانها تعنى بما « يجب » أن يكون في سلوك الانسان ، لا بما هو « كائن » ، والعلم لا يكون علما الا حين يستند الى وقائع ، الى ظواهر محسوسة كالفيزياء والكيمياء ، أو معقولة كالرياضيات على أنواعها ، أو ثابتة لا يعتريها تبديل .

والاخلاق تتبدل وتتغير ، وتغيرها يحول دون تركيزها على وقائع ثابتة ، أو الاستناد اليها في تقريرات شاملة .

ولكن لكل مجتمع فيما أخلاقية خاصة ، وهذه القيم تكاد تكون واحدة في جميع البلدان والعصور ، كالصدق والامانة والعفة والشرف. وهذا ما يكشف عنه البحث في طباع الشعوب (الانثروبولوجيا) قديما وحديثا .

يمكننا ، استنادا الى هذه الحقيقة الواقعية الثابتة أن نركز علم الاجتماع بعد اليوم ، على أساس من حقائق القيم المنشودة ، في كل مجتمع ، والوقائع التي تناقضها في سلوك الافراد والجماعات .

ودراسة القيم في حياة كل مجتمع ، هي التي كانت تسوق المؤرخين ، في مختلف الاحقاب الى تقسيم العصور التاريخية بين عصور تقدم ورقي ، وعصور تأخر وانحطاط .

ويمكن ، مبدئيا ، وضع لائحة بثلاثة أنواع من القيم : القيم العقلية، والقيم العاطفية ، والقيم العملية . ويرادفها في حياة المجتمع القيم العلمية ، والاخلاقية ، والمادية .

تميز عهود الرقي الاجتماعي باحتلال القيم الاخلاقية أعلى المنازل من جهود الافراد والجماعات ، وتليها القيم العلمية ، وتأتي القيم المادية في اخر السلم ، حين يكون المجتمع راقيا .

أما عهود الانحطاط فينعكس فيها هذا الترتيب أو ينقلب رأسا على عقب ، اذ تصبح القيم المادية في أعلى المراتب ، تليها القيم العلمية الخالصة ، ولا يؤبه فيها أبدا للقيم الاخلاقية .

غير أن هنالك عصورا تاريخية لا يصح وصفها أنها منحطة ، كما لا يصح اعتبارها راقية ، فهي على التحقيق بين بين ، وتكون مقدمة للانحطاط . وهذه ترتفع بها القيم العلمية ذات الطابع المادي ، الى رأس السلم ، وتليها المادية ، فالاخلاقية .

وتتميز عهود الانحطاط في كل مجتمع ، بأنها ملتقى أمراض الحضارة . وأبرز أمراض المدنيات المعروفة في التاريخ عشرة . وهي : ١) انشاء امبراطورية ، ٢) الغرور على أساس عنصري واقليمي ، ٣) الاستمتاع بالفتوحات ، ٤) الاعتماد على الدعاية ، والقوة الاقتصادية ـ العسكرية ، ٥) الانصراف الى الملذات الحسية ، ٦) الاستهزاء واللعب بالقوانين والقيم الادبية والروحية ، والتحلل من الواجبات الوطنية والانسانية ، والاعتداء على حقوق الاخرين ، ٧) التعلق بالمظاهر المادية، ٨) عبادة المرأة ، ٩) انتشار التجسس والشذوذ في العلاقات الاجتماعية، ١٠) اللامبالاة بالمصير .

والسياسة في مجتمع هذه أمراضه ، تصرف أذهان العامة والخاصة الى تحقيق المصلحة الشخصية على حساب كل مصلحة عامة ، وتغرق الحقيقة في خضم من الدعايات المغرضة ، واستغلال الافكار والمبادىء لبلوغ أهداف لا تمت الى تلك المبادي والافكار بأدنى صلة ، وتقف على طرف النقيض منها عملا اذ تحتمي بها قولا ، أو تزعم السير بمقتضاها جدلا كأن تعمل للحرب تحت ستار السلم ، وتناصر العدوان وهي تحتمي بالقانون .

أما الفكر السياسي ، فانه يرتطم ، ازاء واقع السياسة هذا، في عصور الانحطاط ، بفكرة « المصلحة » ، ويضيع اجمالا عن الحقيقة ، فلا يجهد بعد في كشفها ، ولا يعمل على تبينها في زحمة المصالح الشخصية وتضاربها .

والفضلاء من الناس والحكماء يتوارون عن الحياة العامة في مثل تلك العصور ، وينشدون العافية الروحية والسلامة الفكرية ، في الاعتزال والتأمل ، وتجنب الريب والاتهامات ، ثم لا يخلصون من الاتهام بالضعف ، وفتور الهمة ، وحتى بالجبن والانانية ، ويكون متهموهم ،

في الاعم الاغلب ، هم الذين يتصفون بتلك الصفات ، وهم السبب في بلائهم ، والمصائب التي نزلت بهم .

ولا سبيل الى النهوض من عثرات الانحطاط الذي يمنى به المجتمع ، الا بربط المصلحة في عقول الناس وافئدتهم ونفوسهم ، بالحقيقة ، وحملهم على الايمان بان مصالحهم لا تتامن الا حين تنسجم والحقائق ، وأن واجبهم الاول تجاه انفسهم كما هو تجاه الاخرين ، أن يتبينوا انصدق من الكذب ، والمفرض من المجرد ، والصحيح من المزيف، كما هي حالهم اذ يتناولون قطعة من النقود ، أو يشترون أداة من أدوات معاشهم أو قوتهم . يجب أن يخامرهم الجزع من « السم الفكري » بنسبة ما يجزعون من سموم الاطعمة والاشربة ، وأن يطهروا ما يلقى اليهم من أخبار وآراء وأفكار ومبادىء مما قد يعلق بها من جراثيم ، على نحو ما يطهرون الفواكه والبقول وسائر ما يدخل معدهم ...

— ٢ —

والشرف هو الرابطة الصحيحه بين الحقيقة والصلحة !

ذلك بان الشريف يرفض ان يكذب ، ويرفض ان يتملق ويتمسكن ، ويحاول دائما أن يوفق بين ما يراه حرية له أو مصلحة ، وما هو حرية لغيره ومصلحة عامة . والشرف الانساني ، على التحقيق ، هو الاصل في فطرة الانسان لا الحيوان ، أو هو أصل الاخلاق المقبولة عقليا لدى جميع الشعوب والامم . وهو أيضا دليل الحياة ، في ذات الانسان .

والثابت علميا أن الحياة لا تولد الا من الحياة ، وقد بدد المجهر فكرة « التشوء الذاتي » التي آمن بها ارسطو والذين جاءوا بعده من فلاسفة العلم . وكانت هذه الفكرة نتيجة ملاحظة سطحية هي أن اللحم الميت اذا أنتن تخرج منه يرقات دودية تتشكل ، تتحول مع الزمن الى ذباب . والمياه الصافية اذ تأسن مدة ، تنشأ فيها أيضا حيوانات صغيرة .

جاء المجهر (المكروسكوب) فاثبت أن الذباب لا يولد من اللحم الميت ، وانما هي بويضات صغيرة ، جد صغيرة ، يلقيها ذباب تام متكامل فوق اللحم ، ولا ترى بالعين المجردة ، ومن هذه البويضات التي لا تملك العين رؤيتها ، ينشأ الذباب .

ثم جاء باستور العالم الفرنسي ، فاكتشف أن ثمة كائنات حية صغيرة ، جد صغيرة ، منتشرة في الماء والهواء والتراب ، هي ما دعي « المكروبات » أو الجراثيم . وهذه الجراثيم هي التي تكمن وراء عدد كبير من الامراض كالسل وغيره ... وهذا معناه أن الحياة لا يمكن أن تولد الا من حياة سبقتها .

والاخلاق مظهر حياة فردية واجتماعية في آن واحد ، فلا يمكن أن تولد من الموات أو الجماد ، ولا يصح اعتبارها ناشئة عن العدم . ان لها أصلا من جنسها ، من نوعها ، كان سببا في نشوئها ، ولا يصح أن ينطبق عليها مبدأ « الخلق الذاتي » الذي محاه العلم ، لانها مظهر حياة ، بل هي التي تسير سلوك الحياة في سيرة الانسان عن وعي وغير وعي .

وانها لتختلف اختلاف الكائنات الحية بين بيئة وبيئة ، ومجتمع ومجتمع ، ومناخ ومناخ ، وزمن وزمن ، شأنها في ذلك شأن النباتات والحيوانات التي تتعدد أنواعها بتعدد المناخات ، والتربة ، وضروب التربية والرعاية التي تبذل لها .

هذا يفيد أن للاخلاق الانسانية — والشرف ذروتها وملتقاها — منبعا واحدا هو الاخلاق الاولى التي تحدرت منها ، ولا يمكن أن يكون لها منبعان كما تخيل برغسن فضلا عن أن يكون لها عدة ينابيع .

انها ككل حياة لا تولد الا من حياة سبقتها في أول درجة ، وعليها يجري ما يجري على الحياة من قوانين أساسية ، وهي :

١ — الارتباط بالماضي ، بالتراث الثقافي .
٢ — التأثر المحتوم بالبيئة والمناخ .
٣ — الرعاية ، والتربية ، والتجارب الشخصية .
٤ — التطور مع الزمن ، أو التنامي ، أو التحول .

الارتباط بالماضي هو ما نسميه « الفطرة » أي أن المولود البشري يولد وله فطرة « انسانية » أو طبيعة بشرية أساسية .

أما محتوى هذه الفطرة فيختلف — حسب الظاهر — باختلاف الاقاليم والبلدان والحضارات ، والمجتمعات ، وتاريخ كل منها . ولا يشذ في جملته عن الغرائز البشرية المعروفة ، التي تؤلف عناصر الفطرة الانسانية .

والاخلاق ليست سوى « نتيجة » لتفاعل عناصر الفطرة فيما بينها . والمربون يستخدمون كلمة « استعدادات » في وصف هذا العنصر الفطري أو ذاك ، والتعبير عنه .

أما العناصر الانسانية الخالصة من محتوى الفطرة البشرية كالنزعة الى التآلف مع الاشباه والنظائر (الروح الاجتماعي) والرغبة في الخلود وحب الحرية ، ونشدان المعرفة (الفضول) ، فانها هي المؤثرات الذاتية الداخلية ، التي تحدد لاخلاق الفرد ، بتفاعلها مع بعضها البعض ، وجهة سلوكه المقبل في أول منزله . وتليها منازل تفاعل هذه العناصر ، خارج الذات من بعد ، مع البيئة والمناخ والرعاية والتربية..

ان طغيان نشدان المعرفه على بقية عناصر الفطرة في ذات فرد ما ، يجعله ذكيا ، فضوليا ، ويوجهه في المستقبل نحو العلم أو الفن أو الفلسفة ، ويحد من النزعة الى التآلف السطحي ، الظاهر ، ويمحو أو يكاد الرغبة في الخلود ، لانه ينطوي ضمنا على تحقيق لهذا الخلود، عن طريق الاختراع أو الاكتشاف أو الابداع الفني والفكري .

وكذلك هي الحال في طغيان النزعة الى التآلف ، فان من شأنها أن تحول الرغبة في الخلود (غريزة البقاء ، حفظ النوع ، الدفاع عن النفس) عن متجهها التصاعدي ، المنفرد ، وتحفر لها في الذات كما في خارجها قناة أخرى تجري فيها ، كرعاية الاعمال والمؤسسات الاجتماعية (دور الايتام ، المستشفيات ، ملاجىء العجزة ، مآوي المشوهين والمشردين ، الخ...) أو الاشتغال بالسياسة العملية .

وهناك أخلاق رجولة ، وأخلاق أنوثة ، قل أن أولاها المفكرون السياسيون ما تستحق من اهتمام في وضع نظرياتهم السياسية،ومعالجة أمراض الحضارة الراهنة ، اذ لا جدال أن تغلب النساء على بعض المجتمعات في أوروبا وأميركا ، رجح كفة المصلحة الشخصية على الحقيقة ، في توجيه السياسة العامة لتلك المجتمعات الرازحة تحت نير المرأة في كثير من التطلعات والاهداف والاتجاهات .

واجماع الباحثين منعقد على نحو عز نظيره في المباحث والدراسات الانسانية ، على أن أهداف المرأة في الحياة العامة تختلف عن أهداف الرجال ، أن لم نناقضها مناقضة تامة شاملة ، في بعض الحالات ، لا كلها .

فالمرأة على العموم ، تزدهيها الثروة ، وتشد السطوة ، وتغريها الوجاهة ، وتحلم أكثر ما تحلم بالرفاهية ، وتسعى ما وسعها السعي في التغلب على قرينتها ، والتباهي بما لديها من حلى مادية ومعنوية، بينما الرجولة الحقة قل أن تجري هذا المجرى ، أو تحفل بما تحفل به الانوثة ، من زخارف وغوايات ... في حيز الحياة الاجتماعية .

— ٣ —

ننتقل من هذه الاعتبارات العامة في بيان الصلة بين الحقيقة والمصلحة وانعكاسها على العلاقات الانسانية ، الى ظواهر في التاريخ السياسي المعاصر ، لم تزل هي ايضا ما تستحق من تدبر وانعام نظر .

وقد تكون أبرز هذه الظواهر انصراف كل شعب أو أمة الى تحقيق ما يدعوه « مصلحة » في اطار العلاقات الدولية ، وتوجيه السياستين : الداخلية والخارجية، وبذا أصبحت هذه المصلحة معيارا، ومقياسا ، وضرب معها صفح عن كل ما هو حقيقة ، وحق ، ما هو عدالة ، وسلام ، واخاء . بل ان مفاهيم هذه المقولات نفسها تتحور وتتبدل حسب مصلحة كل دولة ، وأهداف كل حزب أو فئة . وتحويرها ذاك دلالة انحلال فكري .

والامر الذي لا ريب فيه أن هذه « العقلية المصلحية » التي تهيمن

على الفكر السياسي المعاصر ، انما هي من نتاج الانكلو ـ سكسون في أول منزلة ، فهم آباؤها الاولون ، وهم الذين نشروها عمليا في سلوك الامم الاخرى ، فالانانية تثير الانانية ، والغرور يبعث على الغرور ، والخبث يستدعي الخبث .

ولا أظن أني في حاجة الى تقديم الادلة والشواهد على صحة هذا الواقع الفكري ، فالناس كلهم يعرفون القول الانكليزي المأثور : « ليس لبريطانيا عدو دائم ، وليس لها صديق دائم ، وانما لها مصلحة دائمة » . والمصلحة البريطانية الدائمة تعني أن يرفرف علمها فوق أكبر رقعة ممكنة من الارض ، وتمتد سيطرتها في جميع الجهات ، وأن تكون كلمتها هي العليا حتى في الشؤون الداخلية لاكثر شعوب الارض، ان لم يكن لشعوب الارض كلها .

ولا يقدح في واقعية هذه العقلية أن تكون بريطانيا اليوم أقل سطوة من ذي قبل ، فهي لا تزال كما كانت قبل ثلاثة قرون و أربعة ، وأفكارها لا تزال هي أفكارها ، ورموز علمها لا تزال كما كانت ، ولا تزال هي التي اخترعت لعبة « البلوف » ، ولا يزال « البلف » لتحقيق المصلحة البريطانية ، وما ينطوي عليه من تنكر للحقائق ، وازراء بقواعد الامانة ، هو الطريقة البريطانية المتبعة في السلوك السياسي . ولا يزال « التفريق » بين الناس على صعيد الدين ، والجغرافية ، والحزبية ، والعقيدة ، هو المعتمد في سياسة البريطانيين .

وما يقال في بريطانيا من هذه الناحية يقال ذاته في تلميذتها وربيبتها ، الولايات المتحدة الاميركية ، فالعقلية الاميركية لا تختلف عن استاذتها الانكليزية الا في « سطحيتها » الفلسفية ، بمعنى أن الاميركان أقل عمقا ـ أي خبثا ـ من الانكليز ، وسطحيتهم هذه تجعل عنصر النفاق في سياستهم أوضح ، وتضفي على تصرفاتهم معنى التفاهة في كثير من الحالات .

وكان من نتائج العقلية الانكلو ـ أميركية النفعية ، المصلحية أن فقدت الحقيقة مكانتها في الشؤون الانسانية المعاصرة ، وحلت محلها « الدعاية » ، فان عصرا من العصور لم يعرف هذا الافتنان في الاعلان مثل ما يشهد اليوم عصرنا ، ولا سيما في الديار المتأثرة بالعقلية الاميركية .

ثم كان أن انتشر مع الذهنية الاعلانية هذه الكثير من «التعصب» فان من يقتنع بفكرة ما لكثرة ما قرعت سمعه ، ورددها الاخرون، وبشرت بها الصحف ، ونادى بصحتها الاساتذة المشهورون ، لا يكون في الحقيقة قد اقتنع بمقدار ما قد حيل بينه وبين التفكير الهادىء المنظم، وشغله عنه الشواغل المتوالية ، فاذا به يلقي سلاحه ـ وهو النقد البناء ، أو التأمل المثمر ـ ولا يريد بعد أن يعرف غير ما قر في روعه أنه يعرفه ، ولا حاجة به الى ما يعكر بعد صفاء باله ...

ثم كان أخيرا أن استولت المرأة على المقدرات المعنوية ـ والمادية أيضا ـ للمجتمعات الانكلو ـ أميركية ، وتغلغلت فيها أخلاق التخنث ، وابتعدت شيئا فشيئا عن معاني الرجولة ، وكانت المفاهيم الخلقية القويمة التي تنتصر بها الحضارة الصحيحة على الهمجية الخفية المستترة ، هي الضحية أمام زحف الرفاهية ، والزخارف ، والتزويقات، والترهات ، والثرثرات الفارغة اللاغية .

وقد لحظ هذا الاستيلاء النسوي على الحياة الاميركية ، معظم الباحثين منذ استهل هذا القرن الى يومنا هذا ، وكان في عداد هؤلاء الباحثين اميل فاغيه الناقد الفرنسي الشهير في كتابه «رعاية المرأة» وهندريك ده ليوو في : « المرأة ، الجنس المسيطر » وهنري ده مان الالماني في « عصر الجماهير وانحدار الحضارة » ، وأجمل هذه الدراسات كلها لوسيان دو بليسي في « روح المدنيات » حيث قال : « أما الولايات المتحدة فانها ذات مجتمع جد مائع ، لا ينبثق فيه تصنيف الناس الا على اساس من الدخل المادي ، وليس لهم فيه من محرك سوى الرغبة في الربح ، ولا يشتمل على ارستوقراطية صحيحة ، ولا على أسرة متينة متماسكة ، وهذه الاسرة تشكو من حركة براونية، تمنع فيها كل تراكم تاريخي وثقافي ، والطلاق يجري فيها مجرى الالعاب الرياضية ، تمازجه على نحو ما صورة من البغاء ، اذ تبحث المرأة عن اقتناص أكبر كمية من كل زوج قبل أن تتركه . والاولاد فيها يعانون حالات مرضية ، ضمن نظام مشرف على النهاية ... » (1) .

والواقع أن هذه الاعراض كلها نشأت عن داء أساسي ، هو تفضيل المصلحة على الحقيقة ، وتنامي العقلية الاميركية في هذا الجو المشحون بالضلالات من كل نوع ، فلا غرابة أن يستولي اليهود ، وهم أساتذة الخبث والنفعية والدعاية ، على عقول الاميركان ، ويوجهوهم نحو ما فيه خرابهم وانحلال أمرهم وهوان شأنهم ، بل أن الغرابة كل الغرابة ، أن يتمكن الاميركان ـ وهم حديثو نعمة في كل شيء ـ من مقاومة اليهود والتغلب على مفاسدهم !

ـ ٤ ـ

هناك اذن ، في بريطانيا ، والولايات المتحدة خاصة ، « علامات » انحطاط مروع ، شبيه كل الشبه بانحطاط أثينا قبل أن يغزوها الرومان ، وانحطاط روما قبل أن تنهال عليها حشود آتيلا ، وانحطاط بغداد قبل أن تلجها جموع هولاكو ، ولكنه « انحطاط عصري » بمعنى أن ميزته الخاصة هذه القدرة على التمويه ، والبراعة في التقنع أو التنكر ، بحيث يظل المظهر فيه مناقضا للجوهر ، فلم تفقد معه الشعوب الانكلو ـ أميركية براعتها الاساسية في « الكاموفلاج » كما يعبر العسكريون . وذلك راجع الى أن هذا الكاموفلاج نفسه ، يكمن في الصميم البعيد من كيان الحضارة السكسونية . وحسبك دليلا عليه ذلك الانسياق مع ايحاءات التوراة والتلمود ، في الحياة العملية على المستوى الاخلاقي ، والاجتماعي ، والاقتصادي ، والسياسي ، وتسميه الكنيسة التي تسلك هذا المسلك التلمودي أنها « الكنيسة الانجيلية »، والتظاهر بالدفاع عن « الحضارة المسيحية » استغلالا للشعور الديني لدى الساذجين والاتقياء من نصارى العالم ، ونصارى الشرق خاصة ، وايهاما للكنيسة الكاثوليكية أن العالم الانكلو ـ سكسوني لا يزال يؤمن بعيسى وتعاليمه ، ومن خلال هذا الايهام وذلك الاستغلال ، ينفذ الانكلو سكسون الى ايجاد الشقاق بين النصرانية الحقيقية وسائر أتباع الديانات الاخرى في العالم ، وفي مقدمة هذه الديانات الاسلام ، والبوذية ، والبرهمية ، والكونفوشيوسية ، مع أن الواقع الفكري في أرسخ دعائمه ، يثبت ويؤكد أن مثل هذا الشقاق بين النصرانية وتلك الديانات مفتعل ، غريب عن الحقيقة ، في المبادىء والاهداف .

اذا أنت أخذت الان في تتبع هذا الكاموفلاج الديني ـ وهو جزء من الاستراتيجية العسكرية ـ على الصعيد السياسي ، وضح كل ما يخفاك من أسراره ، وبان لعينيك ما يكمن وراءه من أغراض :

كانت المعزوفة التي يرددها ساسة الولايات المتحدة الاميركية ، ولا يزالون يرددونها كلما ذكرت « اسرائيل » أنها « وجدت لتبقى » ، واسرائيل في حقيقتها ، حركة دينية ، عنصرية ، دولية ، تتعارض وابسط المبادىء التي نادى بها السيد المسيح ، وناضل من أجل تحقيقها على الارض .

والدولة ، أي دولة ، شبيهة في حياتها بطفل . وما من قوة في الارض أو في السماء تحكم بوجوب البقاء لطفل اذا كان تكوينه الاساسي غير طبيعي ، وكانت حياته مهددة من داخلها ، كأن يكون مصابا بمرض

---

(1) انظر

L'esprit des civilisations, par Lucien Duplessy, (La Colombe, 1955), Paris, p. 350 - 354.

عضال ، أو غير قابل جسديا وروحيا لأن يتكيف مع البيئة التي نشأ فيها ، أو هو يحمل في قرارة وجوده عناصر انعدامه ، فاذا كان لاسرائيل كدولة أن « تبقى » أو أن « تفنى » فهذا شأن لا يعود للرومان ، ولا لايزنهاور ، ولا لايدن وجونسون ، حتى ولا لستالين وايدناور ، ولا للرئيسين يومدين وعبد الرحمن عارف ومن بينهما من رؤساء دول ، وملوك ، فبقاء « اسرائيل » كفنائها ، قضية طبيعة وتاريخ ونشأة ، وما لاحد يد فيها . وليس من طبيعة « اسرائيل » كدولة مريضة ، توزع تاريخ ابنائها على دول العالم كله ، ونشأت بوحي من مصلحة انكلو ـ اميركية ، أن تعيش !

هذا هو الواقع أحبته أميركا أم كرهته ، ورضيته الدول العربية أم لم ترتضه . وليس وجودها الراهن الا ظاهرة من ظواهر الانحطاط في الفكر السياسي العالمي الذي أخذ بمبدأ « المصلحة الشخصية » معاندا في ذلك طبيعة الارض ، وحقائق التاريخ ، ومنطق السلوك الانساني القويم .

لنرجع الان الى سلوك « اسرائيل » بعد أن وجدت على ذلك النحو الاصطناعي المفتعل ، ولننظر ما اذا كان هذا السلوك يحمل في طياته عناصر البقاء ، فهذه أفضل طريقة يقتصر بها الحوار على الوقائع والارقام ، ويترك بها الكلام للوقائع والارقام دون صخب أو ملاحاة :

١ ـ انها مشروع دولة لا يعرف حتى مواطنوها ، حدودها . والمواطن الذي لا يعرف حدود وطنه ، يعيش في قلق دائم ، فلا يمكن ذلك المشروع أن يتم ، أبدا .

٢ ـ الصهيوني الذي يحيا في ألمانيا يكره الالمان ويكره العرب ، وهو لا يعرف من يكره ، ولماذا يكرهه . والالماني الصهيوني شأنه شأن كل صهيوني في دول أوروبا وأميركا ، خاصة ، ودول العالم عامة .

٣ ـ تكررت اعتداءات « اسرائيل » على الدول العربية المجاورة لها ، وتكررت مخالفاتها للقانون الدولي ، على نحو لم يعرفه تاريخ دولة في العالم قديما وحديثا .

٤ ـ يؤخذ من الوثائق الثابتة أن اسرائيل تبغي من وراء كل اعتداء تقترفه ، أن تكسب شيئا ما ، تدعم به وجودها ، ثم « تكذب » أنها تريد السلام !

ـ أقصى ما تسعى اليه الان أن يعترف بها العرب كدولة ، وأن يفاوضوها ويقبلوا بوجودها .

٦ ـ كانت الدول ذات المصالح اللامشروعة في الاقطار العربية تساند « اسرائيل » وتتبنى « أفكارها » ، وتصدق مزاعمها دون تمحيص . وهذا ما تبشر الايام بتغييره .

هذه الوقائع التي لا تدحضها قوة ، ولا ينكرها عاقل ، تعني أن سلوك « اسرائيل » يقودها ، دون أن تشعر ، الى الهلاك ، شأنها شأن أي هارب من العدالة في مجتمع متحضر ، أو آي خارج على القانون لا يزال يجد من يؤويه ، ويطعمه ، ويحميه في الدول الانكلو ـ سكسونية ، أي أنه ليس من طبيعة اسرائيل أن « تبقى » وان أريد لها البقاء !

ولكن الفكر السياسي في أميركا يبدو في أوج ضحالته حين يطلب الاميركان من الدول العربية أن « تفاوض » اسرائيل ، وتعاملها كدولة ، اتماما منهم لمشروع الدولة !

انهم يفرضون على العرب فرضا أن « يفكروا » مثلهم ، ويحاولون أن يكرهوهم على السير في هذا المنحدر الفكري ، ويزعمون في الوقت نفسه ، أنهم سدنة الفكر الحر ، وحماة الحرية في العالم ! انهم يريدون من العرب أن يحبوا « اسرائيل » غصبا ، أن « يزوجوهم » منها بالقوة ، وينسون سلوك هذه « المرشحة » للعرب عنوة ، كما ينسون اباء العرب ، وتعلقهم بالشرف والكرامة .

الحقيقة أن « اسرائيل » ليست « وصمة عار لطخت جبين الامة العربية » كما هو شائع ، وانما احدى ظواهر الانحطاط الانكلو ـ اميركي ، في الاجتماع ، والاقتصاد ، والسياسة . وكل فهم غير هذا الفهم خاطىء ، مئة بالمئة .

ـ ٥ ـ

ها قد وضحت الخطوط الكبرى للتاريخ المقبل ، انطلاقا من أن الحقيقة لا بد أن تفرض نفسها ، وكلما وعاها البشر وعيا كيانيا سليما عجلوا في فرضها ، وأعانوا الزمن على اظهارها واعلائها ، وايمانا بأن المصلحة العامة تتغلب في نهاية المطاف على كل مصلحة شخصية ، أو قومية غير مشروعة .

والاكيد أن مصلحة الانسانية عامة تتحقق في مقاومة الانحطاط العقلي والخلقي ، ونبذ الفساد والمفسدين ، وتحريم العدوان والمعتدين ، وقهر الغصب والغاصبين ، وتنفيذ ما تقتضيه العدالة ، ويهدف اليه القانون السليم ، الخالي من كل جور ومحاباة ، سواء كان دوليا أم خاصا .

ومن الواضح أن المجتمع الدولي الذي ترعرعت فيه الصهيونية ، وشبت في وسطه ، وأرضع « اسرائيل » من ثديه حتى عاشت ما عاشت ، أخذ الان يتحول عن أفكاره السياسية ، وبدأ يقترب شيئا فشيئا من الحقائق ، ويضيق يوما عن يوم ، بمصالح الاقطاعية الدولية ، والعنعنات العنصرية ، والمشاحنات الدينية .

الا أن هذا الاتجاه الذي يسير فيه المجتمع الدولي ، لا يزال يرتطم أو يتعثر بذوي الفكر السياسي العتيق ، بذوي العقلية الحيوانية ممن لا يرون الحقيقة الا في رغباتهم ، وأحلامهم ، وأمانيهم ، وأخيرا بذوي المصالح الذين لا يهمهم السلام العالمي الا بمقدار ما يخدم أغراضهم ، وينيلهم مآربهم .

وهنا ، نجد ان الحقيقة التي لا يمكن الا أن تتغلب وتنتصر ، تشق طريقها بسهولة ويسر في توجيه المجتمع الدولي نحو « التعاون » بعد أن كان مخدرا بنظريات « الصراع » و « التنازع على البقاء » ، ملتهيا بحكايات السيطرة ، وبهارج الزعامة ، وأساطير الطغيان والجبروت .

لقد طفق هذا المجتمع يدرك ، على يد الاحداث الاخيرة ، أن « هيئة الامم المتحدة » غير متحدة ، وأن اتحادها المزعوم يؤدي الى نتائج مزعومة ، مثله ، أي الى ما هو مزيف ، ومخالف للحقيقة ، ومغاير للميثاق الذي قامت عليه تلك الهيئة ، من رعاية لحقوق الشعوب ، ودفاع عن أمنها وسلامتها .

وواقع الامر أن « هيئة الامم » هذه لم تكن عند نشوئها ـ وهي تتمة لعصبة الامم ـ غريبة عن العقلية النفعية ، المصلحية ، الدولية التي تسود أوساط الحكم في أميركا وبريطانيا ، ولا كانت خالية من عنصر « الكاموفلاج » الصهيوني الذي قص على الناس قصته الكاتب الصهيوني ماكس نوراداو ، في دراسته « اكاذيب المدنية الحديثة » .

وهكذا ... تواطأت المكيافيلية الانكلو أميركية ـ وهذا التعبير لارنولد توينبي ـ مع اكاذيب الصهاينة ، وانشأتا معا عصبة الامم ، وورثتها هيئة الامم بجميع ما فيها من عيوب ، بل انها ورثت عيوبها ، ونبذت فضائلها ، حين انتقلت من أوروبا الى الولايات المتحدة .

وان موقع الاقطار العربية الجغرافي ، وتاريخها ، وثقافتها ، وميزاتها الاقتصادية ، واتجاهاتها العامة في السياسة ، تحتم بما لا يدع مجالا للشك أو جدل ، أن تسير في الطريق التي تؤدي الى مجتمع دولي يسوده التعاون بدلا من « التنازع » ، وينتفي منه « التآمر » ، ويعمل على احقاق الحق ، وازهاق الباطل ، والتوفيق بين الحقيقة والمصلحة العامة ، وصيانة السلام العالمي أخيرا دون أن يكون للعابثين به من المصلحيين ، والانتهازيين الدوليين ، والعنصريين ، والمتعصبين مجال للاخلال به . وفي هذا انتصار للعرب وهزيمة لاعدائهم .

عبد اللطيف شرارة